

من منطلقات النهضة في الإسلام (الشرع والعقل)

د/ مصطفى محمد يحيى عبده^(*)

فإن مما يمتاز به الدين الإسلامي هو التعويل على العقل والعلم فهما المؤهلان للإنسان ليكون خليفة لله في الأرض، وليكون مكلفاً من قبل الله تعالى حتى إذا خرج الإنسان عن حدود العقل خرج عن دور الخلافة وعن التكليف الإلهي، ومن دلائل احتفاء الإسلام بالعقل تحريم الله تعالى كل ما يؤدي إلى ذهابه أو الإضرار به أو تعطيله عن دوره، حيث حرم تعالى شرب الخمر والمسكرات، بل وشرع تعالى لذلك حنذاً، وحث سبحانه على استعمال العقل في العلم والتفكير والتدبر وألقى باللوم على أولئك الذين لا يتفكرون ولا يستعملون عقولهم، وأولئك الذين عطّلوا عقولهم عن التأمل والتفكير واكتفوا بتقليد الآباء والأجداد.

نجد كل ذلك في وحدة تامة لا تنفك فيها الأوامر بالعبادات وإقامة شعائر الدين عن الأوامر بالتفكير وإعمال العقل وتحصيل العلم في كل شئون الحياة.

وإذا كان الأمر كذلك فقد كان من شأن الأمة التي تدين بالإسلام أن تكون في مقدمة الأمم تقدماً ورقياً ونهضة، واستخداماً للعلم وقوانينه، بحيث لا تسبقها في هذا المجال أمة، ولا يتقدم عليها مجتمع، بل إن هذا التقدم وذاك الرقي يكاد يكون فريضة يفرضها الدين على من يدين به، بحيث يعد المسلم مقصراً إذا هو لم يحقق ذلك قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)^(١) فواجب على الأمة أن تأخذ الأمر باستخدام العقل

والتفكير والتدبر سعياً لتحقيق الخيرية التي وصفت بها من منطلق أنه أمر إلهي واجب

(*) قسم العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر - الزقازيق.

(١) سورة آل عمران من الآية رقم ١١٠.

التنفيذ شأنه شأن الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقد حدث هذا بالفعل يوم أن فهم المسلمون الإسلام فهما صحيحا فقدموا للعالم نموذجا متقدما يأخذ بناصية العلم في كل المجالات، ونموذجا للمجتمع الإنساني الراقي الذي يقوم على أخلاق الإسلام من العدل والإنصاف والحرية والمساواة، كان كل ذلك واقعا ملموسا سواء مع المسلمين بعضهم البعض أو مع الذين يعيشون تحت مظلة الإسلام ويدينون بديانات أخرى.

تقدم العالم الإسلامي حينئذ وكان منطلق تقدمه هو الإسلام. بما اشتمل عليه من أسس تكفل هذا التقدم، من أهم هذه الأسس أن الإسلام كرم العقل الإنساني ولم يحجر عليه، بل إن الإسلام طالب المسلمين بإعمال عقولهم بأقصى ما يكون الإعمال، حيث طالب الإسلام المسلمين بأن يبنوا اعتقادهم على يقين، وأن لا يتبعوا الظن، وأن لا يقلدوا آباءهم أو إخوانهم، وحثهم على التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض.

نقول تقدم العالم الإسلامي منطلق من دينه، وكان العالم الأوربي حينئذ متخلفا يعيش في ظلام دامس، يوم أن كان المسيطر عليه الفكر الديني المسيحي، ويوم أن كان المتسلط عليه رجال الكنيسة.

ولكننا عندما ننظر الآن نجد أن الأمر قد انعكس حيث تقدم العالم الأوربي وتأخر العالم الإسلامي ووقع في التخلف والانحطاط منذ عشرات السنين، تخلف العالم الإسلامي علميا وفكريا، واجتماعيا، ونتج عن كل ذلك أن تخلف اقتصاديا. وازداد الأمر سوءا أن تسلط العالم الأوربي على العالم الإسلامي مستعمرا لأرضه وموهنا لقوته ومستغلا لثرواته.

هنالك هب المفكرون والمصلحون بحثا عن أسباب تخلف العالم الإسلامي وعن السبيل لنهضته مرة ثانية، فهل يا ترى يكمن سبب التأخر في الإسلام فنبذه كي نتقدم كما فعلت أوربا؟!

إن هذا فرض يكذبه الواقع فقد قلنا إن العالم الإسلامي قد تقدم منطلقا من دينه في حين كانت أوروبا متخلفة وهي تحت سلطة رجال دينها، وهل يكون السبيل لنهضة الأمة الإسلامية أن تستورد أفكارا من العالم الأوربي، إن هذا الحل لا يشفي العالم الإسلامي من تخلفه، ولا يأخذ بيده نحو التقدم فالفكر الأوربي والثقافة الأوربية لها بيئتها التي نشأت فيها ولها ظروفها الخاصة التي أنتجتها، ولا يمنع كلامنا هذا أن نستفيد من الفكر الغربي في النواحي العلمية.

نقول إن السبيل لنهضة العالم الإسلامي إنما هو بالرجوع إلى الإسلام نفسه والوقوف عليه بتفهمه وتعقله والسير وفق تعاليمه التي دفعت المسلمين الاوائل إلى العلم دفعا، والتي أوجبت عليهم النظر العقلي في الكون كشفا عن أسرارهِ واكتشافا لقوانينه، تحقيقا لسيادة الإنسان على هذا الكون.

إن أوروبا إذا كانت قد تقدمت حين قامت بتحرير العقل، والاعتماد على العلم، فإن ذلك شيء نادى به الإسلام، بل وأوجه على متبعيه، بل جعل الذين يعلمون فوق الذين لا يعلمون قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١)، وقال تعالى: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)^(٢).

هذا وسوف نحاول من خلال هذا البحث، أن نبين موقف الإسلام من العقل وكيف كرمه وشرع ما يحميه أو يزيله وكيف جعل لنا العبرة في أولئك الذين لم يستخدموا عقولهم، وكيف ألقى باللوم على من تنكب طريق العقل فقلد غيره أو اتبع هواه لعلنا بذلك نسهم أو نقدم شيئا يساعد في تجلية الفكر الإسلامي الصحيح الذي هو مؤهل في نظرنا لأن يأخذ بيد العالم الإسلامي ليخرجه من تخلفه ويقوده إلى طريق النهضة والتقدم والرفي.

فالشرع بجانب العقل من أهم المنطلقات التي تناط بها نهضة العالم الإسلامي.

(١) سورة الزمر من الآية رقم ٩.

(٢) سورة المجادلة من الآية رقم ١١.